عناصر النهضة الإسلامية.. محاولة تقريب

ابتهاج يونس

من شيم شباب اليوم - عمومًا- السؤال لدرجة التشكك، وعدم الاقتناع بالإجابات التلقينية التي تفرضها الوسائل التقليدية في الحوار والرد، ولاسيما بسبب الوضع الحضاري الذي يشهده العالم خلال هذه العقود والتي اختلفت معاييرها وخصائصها وأدواتها عن الزمن الغابر الذي عاش فيه أجدادنا، حيث كانت وسائل الاتصال محدودة ومصادر المعرفة قليلة على عكس اليوم، ناهيك عن البدائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي أصبحت اليوم متاحة ومخيرّة نتيجة النظام العالمي الجديد والعولمة بكافة قطاعاتها، والتي أصبحت تنافس كل ما هو موجود في ثقافتنا ولاسيما في مكوّن الدين والأعراف .

أصبح الشاب المسلم متحيرًا وسط هذا التعدد والخيارات المتاحة، متشككًا هل نحن الوحيدون على سطح هذه الأرض؟ هل المسلمون هم الوحيدون خلفاء الله في الأرض؟ هل الإسلام ملائم لكل زمان ومكان؟ هل هو متوافق مع معايير النهضة؟ هل اعتناق الإسلام به قوة إيمانية غير اعتيادية تجعل الإنسان ذا طاقة خارقة للتقدم؟ إن كان ذلك، فلم نرى حال المسلمين عكس ذلك؟ لماذا نحن متخلفون علميًا وثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديا وسياسيا؟ لماذا تهجر عقولنا للخارج؟ لماذا تصادر حرياتنا الشخصية في بلداننا؟ لماذا مازالت المرأة لدينا لم تحقق مقولة نصف المجتمع؟ لماذا أصبحت الأعراف والأهواء هي المحرك بدلا من القيم العلمية في تسيير أمورنا؟ لماذا تسود العنصريات الدينية والطائفية المذهبية في تعاملاتنا؟ لماذا أمننا الفكري والاجتماعي يزداد كلما ابتعدنا عن أوطاننا؟ لماذا مازلنا مجرد مستوردين في كل شيء؟ لماذا يسود الفقر والجهل والظلم الاجتماعي عندنا؟ لماذا لا يستطيع المسلم أن يكون فاضلا في بلاده ومحتفظا بمبادئه دون نفاق وابتسامات صفراء؟... والكثير من الأسئلة التي توضح الفجوة بين شعاراتنا وواقعنا!.

يقدم الباحث الإسلامي ناصر الدين الأسد طرحا مجودا في بحثه "عناصر النهضة في الإسلام" - يحاول فيه الوصول لعقلية الشاب المسلم لحل تلك الأسئلة، وذلك بحسب قوله بعيدًا عن العواطف المتشنجة والسذاجة والمقدمات المسهبة، فكانت استراتيجيته في الإجابة بأن يركز على جانب التنشئة التربوية للطفل المسلم ذاكرًا بالتفصيل قيمها «المثالية» وخصائصها وأساليبها والتي تساهم في تشكيل شخصية المسلم وأثرها في بناء وعيه النهضوي.

نبتدئ بالقيم، والتي تتمثل في مبادئ عديدة منها: (١) أن المسلم هو خليفة الله في الأرض لكي يحكمها ويعمرها، (٢) به نفخة الله، حيث جعله في أحسن تقويم، وأمده بعلمه وأيده بروحه، (٣) سخّر له كل الكائنات والمخلوقات ليتم مهمته ويعمل ما يشاء، (٤) أمده برحمته وغفرانه؛ ليؤيد خطواته ويثبتها ولا يخشى إن عصى فإنّ باب الله مفتوح دومًا، ولكن بشرط أن يستخدم كل قواه النفسية والعقلية للثبات على طريقه، (٥) الحساب مقابل رفاهية النعم والمتن ونعمة الاختيار والعقل.

أما عن خصائص هذا التوجيه التربوي فتتمثل في: (١) العالمية في الطرح، والمساواة بين الناس، و"عدم التفرقة بينهم إلا بالتقوى"، فالله ليس رب قوم دون قوم، وطرح الباحث هنا مصطلحين لكن لم يفصل فيهما، وهما "ديموقراطية التربية" و"ديموقراطية الثقافة" حيث يريد إيصال فكرة أن الإسلام لا يحتكر العلم ولا العقيدة على عكس أهل الغرب الذين وضعوا مجالات علمية محظور تعلمها على أمم العالم الثالث، حتى سمي عصرنا بعصر «كتمان المعرفة»، ولاسيما علوم الفضاء والذرة والأسلحة. (٢) الإنسانية: أي أنّ الإسلام منفتح على مناهج التربية والتعليم في كافة الأمم، وقد ناشد بطلب الحكمة ولو من الصين، وجعلها ضالة المؤمن، فالمسلمون استوعبوا ثقافات غالب الحضارات وقننوها بما يتسق معهم، وتوقف في هذه النقطة ناقدًا الزيف والدس الذي حصل بسبب ذلك. (٣) التفاعل الإيجابي والمسؤولية الاجتماعية، أي أنه ليس فردا أنانيا بل لابد أن يكون لديه هم الجماعة والإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والتكافل الاجتماعي، (٤) التكامل في النظرة للكون حيث لا صراع بين الأضداد مثلا الدنيا والآخرة، حيث لا اختلاف ولا تجزئة في الدين، (٥) عدم الازدواجية بين القول والفعل، وعدم احتكار العلم على نخبة معينة دون أن تعرض للتطبيق، (٦) القوة والعزة التي يستمدها المسلم من دينه، بفرض الجهاد وعدم الخوف من الموت، (٧) تحرير العقل من الخرافات والأباطيل، ولاسيما ما حدث عند نهي "المشركين" عن عبادة الأوثان.

تكمن الأساليب التربوية برأيه في: (١) القدوة الحسنة وعدم الاكتفاء بالوعظ مستدلا بأنّ ظاهرة الصحابة والتابعين كانت مثالا على الاقتداء. (٢) التعليم المستمر: فقد كانت مجالس العلم عند المسلمين مليئة بالشيوخ والشباب والأطفال وكافة الفئات العمرية، حيث لا يتوقف التعليم عند عمر معين. (٣) التعليم الحر والجامعات الشعبية، حيث يوضح أن المسلمين كانوا يجلسون في مجالس لا تفرق بين الغني والفقير يرتادونها للنقاش في مختلف الأماكن والأوقات والتخصصات. (٤) مبدأ وحدة المعرفة وتكاملها أي لابد لطالب العلم الإلمام بالمعرفة وعدم الاكتفاء بعلم واحد، بل إنه لا يُقبل الطالب أن يكون عالمًا ما لم يلم بالعلوم الأخرى بطرف على الأقل، فقد كانت المجالس العلمية تدرس الدين واللغة والنحو والأخبار والموسيقا والفلسفة.

وأخيرًا يرجع الباحث أسباب تخلف المسلمين لتناسيهم لتلك القيم والخصائص والأساليب، وانحراف جرى في "الفطرة"، إلا أنه حاول لم ماء وجه الحضارة الإسلامية في النهاية عندما قال إن الحضارات «الوثنية» لم تكن بانفتاح الحضارة الإسلامية، ولا باتساع جغرافيتها، ولا بوفرة إنتاجها الفكري والثقافي، وإن حضارتهم كانت محصورة على أقوامهم وقد زُيفت وحرفت أديانهم وتعاليمهم، وهذا ما لم يحدث عند المسلمين فلم يزيف منهجهم ولا كتابهم. والآن آن لنا أن نمحص رأي الكاتب من زاوية أخرى - مع عدم نكران جهده وفضله - ونراجع بعض الأفكار والمعلومات التي طرحها، فمن نظرنا نرى أن:

(١) الكاتب لم يخرج عن إطار القومية الإسلامية في توضيح المبادئ التي تساعد المسلم للنهوض لمجرد انتسابه للإسلام، حيث إنّ طرحه ما زال نوعا ما كلاسيكيا لأنّه لم يلامس الواقع المعاش، فأطروحته تميل للمثالية دون ذكر مشكلات العصر الحديث وما يواجهه المسلم من تحديات في كافة المجالات، حيث تفتقد الأطروحة لمناهج البحث التاريخي والاجتماعي التي تعمق جذور العقدة وتؤصلها، فقد اكتفى بتحليل مضمون النصوص القرآنية والنبوية، ناهيك عن ظهور النزعة القومية عند وصف الحضارات "الوثنية" أنها لم تكن عالية، فماذا عن الحضارة الفرعونية التي وصلت بآثارها للصين؟ وماذا عن الحضارة الإغريقية التي غزت العالم بأسره وجمعت الشرق والغرب بحضارة مزيجة وهي الهلنستية وازدهرت الفنون والعلوم والفلسفة، التي أخذ منها المسلمون فيما بعد؟!.

(٢) يا ترى ما حيلة المسلم الذي اعتنق إسلامه بالوراثة، والذي وجد نفسه فجأة في عالم العولمة، والتي أتاحت له رؤية إخوانه البشر من كافة الألوان والأجناس والأديان - يدعون ما يدعيه، في أنّ دينه دين الفطرة، وأن الكون مسخر له، وأن الله اصطفاه لأنّه من الدين الفلاني، ناهيك عن تشابه عناصر الأديان كوجود إله وملائكة وشيطان وخير وشر وآخرة ومنقذ ونبي، يا ترى كيف ينزع المسلم عن قلبه كل ذلك الشك وسط هذا التعدد؟ قد يقول البعض إنّ الحل هو تحريم القراءة لهم أو الاختلاط معهم لتجنب التأثر بهم، لكن هل هذا هو حل القوي المعتز بأصحيته؟ وهل فعلا هناك طريق واحد لله؟ هل تعليمنا والتوجيه النفسي الإسلامي السائد يميل لحل تلك الأسئلة؟

(٣) في عصر العلم والثورة العلمية التي تميل لإعطاء كل شيء تفسيرًا منطقيًا أو ماديًا، هل تعد الإجابات الفضفاضة التي تقدمها الأديان عموما مناسبة للأسئلة الوجودية العميقة التي يسألها الإنسان في عصر ما بعد الحداثة؟ هل تجيبه جوابا وافيا مقارنة مع الفلسفة عن أصل الخلق وسبب المعاناة والمرض والعدالة الإلهية وأصل الخوارق والمعجزات؟.

(٤) هل يستطيع الإسلام مجابهة البدائل الوضعية كنظام الدولة والمؤسساتية ولوائح حقوق الإنسان وما تعطيه للإنسان من حريات وميزات وتسهيلات تفوق قيود الدين؟ هل هناك ما يجبر الإنسان على إتباع تلك الحدود التي قد يفرضها الفهم الضيق للدين - مقابل وجود حل يضمن حقوق الجميع دون تعدّ أو تمييز ديني؟ أما آن الوقت لأن نخرج من إطار التصنيف الديني وأن نجعل تعاليمنا لا تقصي أي أحد؟.

(٥) التعليم الحر يتعارض نوعًا ما مع الدعوة التقليدية للقدوة لأنها بالضرورة تؤدي في النهاية إلى التبعية إن كان هناك تزمت، وهذا ما يتعارض مع قيم العصر في سهولة الحصول على المعلومة وتعدد المصادر.

(٦) الدعوة للجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابد أن يصاغ مفهومها من جديد، حيث إن الباحث يدعو للجهاد بمعنى القتال، وهذا يتعارض مع قيم العصر وإمكانيات الإنسان الحديث ومفهوم السلام، لكن من الأفضل أن يفصل عمليا كيفية تطبيق مبدأ المسؤولية الاجتماعية عن طريق المشاركة في جمعيات المجتمع المدني والحث على العمل المؤسسي الهادف في ظل نظام الدولة، ناهيك عن ضرورة مراعاة الحريات الشخصية وعدم التدخل حتى في مسألة الاعتقاد، إيجاد طرق علمية جديدة لإقناع الآخر ودعوته.

(٧) ترسيخ مبدأ "الخليفة" و"التسخير" واقعيا لم يثمر التميز والمسؤولية والإعمار والإبداع، بل أثمر الكبرياء والتعصب والطائفية والغرور في هذا العصر، لأن المسلم بها أصبح يتكبر بقيمه دون تطبيق، ويميز بين الناس بالتعامل السلبي على هذا الأساس.

(٨) لابد من إيجاد حل يحل جدلية«المثال» و«مطبق المثال» و«الواقع»، فالصورة الذهنية المرتسمة حول الإسلام ومصداقيتها - تكمن في المنفذ والإمكانيات المتاحة، فكلام الباحث جميل يمثل القيم الإسلامية الأصيلة التي تعززها التربية الإسلامية، لكن الواقع أن المشهد الديني يسيطر عليه نمط من الرجال يمثلون وجهات نظر متعصبة يزعمون أنها أصل الدين ومبادئه فيؤثرون على الجموع بالضرب على وتر العادات، فينغلقون ويحكمون ويظلمون ويخرجون عن الواقع.

(٩) إشكالية أغلب الباحثين الإسلاميين استخدام الشعارات والقيم العامة المطاطة التي يسهل استغلالها وتوظيفها فيما بعد لمصالح خاصة.

(١٠) لابد من توسيع مجال الاجتهاد الديني العلمي، وكسر الحدود التي تزعم أنها تخدش الأصول، وابتكار رابط وثيقة بين الدين والواقع الحداثي بل ما بعد الحداثي، بحيث ينافس حريات لوائح منظمة حقوق الإنسان، ويوفر حريات وضمانات إنسانية أفضل، فحتى الآراء الإسلامية الوسطية اليوم للأسف لم تعد مواكبة، وما زالت بها تضييق وحريات وضمانات أقل.

ibtehaj.i9@gmail.com